الموضوعات النبوية

في أدب الرافعي

تمهيد وتعريف ـ مصطفى نعمان البدري

« لايعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلا افرغ الله وجوده في الوجود الانساني كله ، كما تنصب المادة في المادة تمتزج بها فتحولها فتحدث منها الجديد ، .. فاذا الانسانية تتحول به وتنمو ، واذا هو صلى الله عليه وسلم وجود سار فيها فما تبرح هذه الانسانية تنمو به وتتحول »(١) .

الـــرافعي

كان للمحاولات اليهودية في فجر الدعوة المحمدية ، وللحملات الصليبية في القرون المتأخرة ما كان من غارات وتعويق لسير الأمة على صراطها المستقيم .

وكان الغزو الفكري بابعاده التبشيرية ـ الماسونية ـ الصهيونية التي بعثت الشعوبيات الموروثة وأقامت بازائها شعوبيات اخرى محدثة في القطريات والطائفيات التي تلحد للامة ودينها الحنيف ـ قد التف على دنيا العروبة ومواطن الاسلام في وقت سابق في التاريخ .

ولكن مالبث هذا الغزو ان استشرى بعد اللوثة الفرنسية ، وتحكم في جيوش الدول الباغية يسيرها كيف يشاء للاستحواذ على البلدان وأسر الاوطان بأهليها ! ..

يمهد لذلك بدراسات يزعم فيها المنهاج العلمي ، وينصدى بها للعقل العربي يجره اليه بعيدا عن واقعه الفقيه ، وانفراده بالاجتهاد المثيل الذي يطبعه فيمتاز على سائر العقول والافكار .

وقد كان قادة « الثورة الفرنسية » يهودا ماسونيين كما حقق ذلك المسيو اولار[٣] وقام فيلسوفهم « فولتير » بتأليف كتاب يطعن فيه بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ويتهمه بالبربرية والكذب ، ويقدم ذلك الكتاب الى البابا يتمرغ بوجهه على نعاله ليغفر له[٣] .

وحمل الدوق « داركوز » على الدين الخرافي ! (الاسلام) وجعله سبب عجز أهليه وتخلفهم ، ودعا « كيمون » الى القضاء على الشلل المريع (الاسلام) الذي بشر به نبي الوحوش (المسلمين) .. وأشار بنقل ضريح محمد الى متحف اللوفر[٤] .

وزعم « رينان » ان الاسلام لايشجع على العلم ولا يسمح بالبحث[٥] .

وحاول « هانوتو » الصاق كل عيوب التخلف وما دعاه بالتعصب والعرقية السامية بالعرب ، ودينهم الاسلام[٦] .

أجل كان الغزو الفكري يمضي هكذا على وجهه حتى استطاع ان يستغرب بالكثيرين من ضحاياه الذين اضحوا له كالوكلاء عن ذكاء لا غباء !! فزعم أحدهم « ان العلم لا يأتلف مع معتقدات العرب »[٧] ومضى الاخرون يقتفون الآثار كالانعام بل أضل سبيلا .

وقد اغتبط المستر جب بأن « حركة التغريب قد انزلت الاسلام عن عرشه في الحركة الاجتماعية »[٨] حتى كاد يفقد الطابع القومي للفكر العربي المعاصر معظم مافيه من قيم واعتبارات[٩] .

وبينما كان الشعراء يتألقون كرما وبيانا ، ويفيضون حسنا ووجدانا في المناسبات النبوية من المولد والهجرة[١٠] انعطف فضلاء الكتاب ونبغاء المفكرين يتسابقون في الدراسات الموضوعية التي يردون بها عادية الغزو هذاك ، وينتقلون بفن المديح النبوي من طور الى طور آخر يرتقي بالادب العربي الى مصاف الاعتقادية القومية للامة ، التي تعيد الايام سيرتها الاولى في الجهاد وحسن البلاء .

وفي مقدمة هؤلاء الافذاذ الشيخ محمد رشيد علي رضا الحسيني داعية « الخلافة العربية » فيما كان يعده للمنار من احاديث ودراسات وفتاوي اجتمع بعضها في « الوحي المحمدي » .

والاستاذ محب الدين الخطيب عريف العروبة المؤمنة بما دبجه يراعه المجاهد « للمؤيد » وجريدة « القبلة » ومجلات « الزهراء » والفتح والازهر ، ورسائله الاخرى .

والاستاذ محمد بهجة الاثري أمين العقيدة القومية بمعطياته الوجدانية ودراساته اللغوية ومقارناته الفلسفية ، وانفراده العلمي الاثير .

والاستاذ عمر الدسوقي اديب الوحدة العربية بما تميز به من الجرأة (على مفترق الطرق) وصيحاته العربية في أذن مصر السياسية ، واحاديثه القيمة فوق منابر الدرس في الآفاق .

وما تألق به الاستاذ احمد موسى سالم قائد الانصار في الدعوة الى اعادة تعريب الدعوة الاسلامية بتصفية آثار الغزو الفكري في مجالاته الشعوبية الموروثة في تخريفية الاسطورة الشرقية ، والمحدثة في التغريبية القصصية اليهودية .. ثم في حرصه الاثير على الصحراء ليعيد العرب منها بناء تاريخهم الحضاري المصفى على قدس القيم ! ولا سيما بعد كشفه لقناع الفرعونية ، وابرازه لحقيقة التصوف .

وما كان يتصدى به الاستاذ محمود الملاح لهذه المبعوثات في التيارات الطائفية والسياسية .

وغير هؤلاء واولئك من الكتاب والادباء الفضلاء ، الذين وقفوا بثبات يدلون على اصالة العقل العربي ، ونبل رسالة الاسلام السامية ، بالردّ تارة ، والذب اخرى ، والمخاطرة في التأليف ثالثة .

وكلهم كان ينظر الى الاستاذ مصطفى صادق الرافعي بعين الاجلال والاكبار ، يعتدون به ما أمَّم في هذه التجليات من سبحات الفكر وامر الفقه المجتهد والادب في موافقاته .

ذلك انه لم تكن تفوته الاسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتأدب بأدبه ويهتدي بهديه ويأتم به ، .. فلم يفته من أدبه شيء من ذلك كله ، وما قصر ناحية منه ، وانما كان كالذي يستبق الايام في هذا الشأن .

ولعل تقربه المبكر من الشيخ محمد عبده ، ومجلسته لمحمود سامي البارودي وغشيانه لندوات الأدباء والشعراء ، ومحاضراته النقدية في منزلة هؤلاء وأولئك واصطفائه لرفاق الذوق اليباني .. كل أولئك وكثير غيره كان يفتح عليه الباب على مصراعيه للقول في الموضوعات النبوية ، والخطابة في المواسم الاسلامية ، والمحاضرة عند المناسبات القومية . اذ كان ذلك عنده هو الجهاد في سبيل الله[١١] والذب عن حياض الايمان والمقاومة للغزو .

ومنذ أيامه الاولى هم أن يؤلف « جمعية السنة المحمدية »[١٢] وكان النصير لجمعية « الاحسان »[١٣] وعرفتت له قصيدة في « ذم الهوى »[١٤] في لون من الوعظ غير الموفق

وقد شوهد في توسلاته بصاحب الشفاعة قبل ان تعرف جملة هاتيك الموضوعات وقوله فيها[١٥] :

أبت عيناك الا ان تصوبا
وهذا القلب الا ان يذوبا

فمالك تحذر الرقباء .. حتى
هجرت النوم تحسبه رقيبا

ورب حمامة هبت فناحت
تنازعني الصبابة والنحيبا

دعي هم الحياة لذي فؤاد
فما ترك الغرام لنا قلوبا !

رعاك الله هل مثلي محب
وقد امسى محمد لي حبيبا ؟!

شفيعي يوم لايجدي شفيع
وطبي يوم لا أجد الطبيبا

★

رسول الله جئتك مستغيثا
وجودك ضامن ان لا اخيبا

متى تخضر ايامي وتزهو
ويصبح عود آمالي رطيبا ؟!

فقد ضاقت بي الدنيا وهبت
فجائعها على قلبي هبوبا

ومالي غير حبك من نصير
فعل من العناية لي طبيبا !!

وبالرغم من انها صادقة التعبير في ادائها النفسي عن حاله غير المعافاة يومئذ ، وكونها من اوائل قوله ، فانها شئت عن تأثره بالبارودي ادبا ومعنى ـ وان قصر الاسلوب الغض الشاب عن متانة الشيخ العائد .

ولعله اول من التفت من شعراء جيله نحو شهر رمضان المبارك ، يحييه بمقطوعة حلوة الوزن ذات رقة خاصة في القافية ـ على ندرة النظم في هذا الموضوع عند شعراء العربية في مختلف ايامهم ، فقال ـ وهي من اوائل نظمه :

فديتك زائرا في كل عام
تحيى بالسلامة والسلام

وتقبل بالغمام يفيض حينا
ويبقى بعده أثر الغمام

ولم ار قبل حبك من حبيب
كفى العشاق لوعات الغرام

فلـو تـدري العوالـم مادرينـا
لحنـت للصـــلاة والمصيـــام
بني الاســلام هذا خيـر ضعيف
اذا غشـي الكريم ذرى الكـرام
يلمكـم عـلى خـير السـجايـا
ويجمعكـم عـلى الهمم العظـام
فشـــدوا فيـه ايديكـم بعزم
فمـــا عـاجت عليكـم للمقـام

وربما كان للرافعي غير هذه وهاتيك مقطعات واحاديث لم يعن بجمعها يومئذ ، او ربما كانت تنشر له في الصحف غفلا من الامضاء او يطويها كتمانا(١٦) .

وكانت الذكريات القومية في المناسبات النبوية احدى وسائل المقاومة للاحتلال وغزوه الفكري ، فهي تستحث الاقلام للاقدام على خطوات ثابتة في هذا السبيل القويم .

وربما الحف التلامذة والاصدقاء بالطلب اليه ان ينظم له موافقات ، او ينفرد بموضوعات او يذهب مذهبا في هذا السبيل يعرف عنه .

وكان كلما هم بامر ذي بال في هذا الشأن حالت دونه الحـوائل وصرفته الأيام عنه ، او عوقته المعوقات الاخرى ، .. فلا يكاد يحين الوقت حتى يفوته الزمن(١٧) .

وبقي كذلك بين مد الهمة وجزر التنفيذ حينا من الدهر حتى كانت احدى مراحل الانتقال بالفكر العربي المعاصر ، .. تلك التي انطلقت من صف المستغربين الذين اثمر فيهم الغزو من دعاة التجديد والحرية الدستورية او «ذوي المصالح الحقيقية الخاصة» كما كان يحلو لمعتمد الاستعمار « كرومر » ان ينعتهما .

اذا ماكاد يصدر في فرنسا كتاب « اميل در منغام » في النبـي العربي عليه الصلاة والسلام ـ وقد زعم فيه ان النبي محمدا عليـه

السلام كان يتعبد على الطريقة اليهودية والنصرانية !! ـ حتى اعاد الى الاذهان شيئا من حسن الظن بالمراجعة في النية والطيبة التي تحسب ان هناك منصفين للاسلام ولرسوله من ابناء الغرب وعلمائه ! .. فكانت كشارة التوجيه لهؤلاء ! ..

وكما تستدير السياسة من حول الاهداف استدار بعض اولئك المستعمرين من عقولهم يكتبون في الاسلام ، ويؤلفون في جوانب السيرة النبوية ، ويصنفون في موضوعات العقيدة المقاومة للغزو هذاك !. ولو بالورق الذي تسيل عليه احبارهم تختلس الوقائع من زوايا التاريخ !.

وقد رأى الرافعي في محاولة طه حسين الكتابة « على هامش السيرة » لونا من التهكم الصريح[١٨] كما رأى في بناء محمد حسين هيكل كتابه (حياة محمد) على ترجمة للكتاب الفرنسي ، وتورطه برأي في الاسراء لاقيمة له البتة[١٩] شيئا لايمكن ان يترك هكذا .

وازاء الحاف العديد من تلامذته ومحبيه ، وفي مقدمتهم الشيخ محمود ابوريا والاستاذ محمد سعيد العريان والسيد كمال الدين الطائي[٢٠] وغيرهم ، وتوالي رسائل القوم عليه تستحثه على الكتابة التي يجدون انفسهم مجلوة فيها بمؤمن افكارهم ، وما يتطلعون اليه من افواف الادب ، وروائع البيان ، وثمار القرائح ، التي تقدم من مغانم المعرفة وابعاد الاعتقاد وصور الوحي والالهام خير ما يتشوقون اليه من فكر فقيه .

وامام رغبته في اتمام كتابه (اسرار الاعجاز) الذي بقي مشغول الفكر فيه دائما[٢١] ولا سيما انه كان كالذي اكتشف « ان الناس متهيئون للايمان ولكن ـ ينقصهم[٢٢] من يكشف لهم عن أماكنه »[٢٣] .

وكانت هنالك عبارة لصاحب المقتطف[٢٤] هي الاخرى زادته

ألماً وتحسرا ، فضج قلبه دعاء الى الله ان يفرغه لخدمة لغة كتابه ودينه »[٢٥] .

كل اولئك وكثير سواها جعلت من الرافعي ارادة ان يكون له اثره الذي ينفرد به على هذا الصراط من الادب الاعتقادي الذي آثره، فيكون كالرد الحاسم على اولئك المستعمرين من عقولهم..ويشفى به صدور قوم مؤمنين .

وكان الرافعي قد بلغ بادب الانشاء وفن التعبير غاية لم يدركها قبله اديب في تاريخ العربية كله وافاض عليهما بما عرف من الالهام والنظرة الخارقة في التفسير والتحليل والوصول الى حقائق الاشياء ، ودقائق الامور في معظم الموضوعات التي يتصدى للكتابة فيها .

ويوم انتهى من خماسيته الانشائية الرائعة في« اوراق الورد»[٢٦] ووضع الحد الفاصل بين زعم التجديد والاثمار الحق فيه .. كان الذي احس ان هناك من ينتظر البناء الاعتقادي في الفكر العربي بعد انتصاره المؤزر هذا .

وهكذا تهيأت الاسباب مجتمعة فعاد الى ذلك الاساس الذي يصدر عنه بادبه النبوي .

وفي الوقت الذي كان يكتب فيه فصولا من « اسرار الاعجاز » وتنكشف له حقائق ويبصر بدقائق من الاعجاز في تفسير الآيات القرآنية، ويتوصل الى اسرار جديدة في اعجازها ، لم يدركها سابقوه من المفسرين وعلماء البيان ممن صنفوا في البلاغة واعجاز القرآن وتفقهوا في المعاني .. كان من الناحية الثانية ينظر اثر التربية القرآنية والعناية الالهية في الحياة النبوية المضواعة .

ثم انه راح يتسامى في جو روحاني أثير ، وحال صوفي متواجد يتهيأ فيها لمثل هذه الاعمال الادبية الفريدة[٢٧] .

وكان قبل ذلك قد كتب في « البلاغة النبوية » كالذي يؤرخ لها ،

يوم صنف مؤلفه العظيم « تاريخ آداب العرب » وافرد فيه بابا لاعجاز القرآن وآخر للادب النبوي ، الذي هو الثمرة الاولى للغرس الالهي في الفكر العربي بالقرآن المبين الذي اضحى له ضميرا ابدا .

وهم غير مرة ان يستأنف حديث التاريخ هذاك ، .. حتى اذا ما طلب اليه الشيخ كمال الدين الطائي امين جمعية الهداية الاسلامية ببغداد ان يكتب في ذكرى المولد الشريف فتح الله عليه وكتب مقالته الرائعة في (الجمال الفني في البلاغة النبوية) وقد ذهب فيها مذهبا عزيزا آخر في البيان هو غير التاريخ والمقارنة ، وكأنما اتم بها ذلك الباب ، . فتعب فيها تعبا شديدا[٢٨] .

ثم وافاه كتاب آخر من جمعية « الكشاف المسلم » في الشام يطلب اليه ان يعد له موضوعا تنشره في كتاب تصدره في مناسبة المولد النبوي ايضا[٢٩] فكتب لها في « حقيقة المسلم » قربى الى النبي محمد عليه الصلاة والسلام[٣٠] .

وكانت مجلة الرسالة قد دعته اليها ليكتب فيها فصلا في الهجرة ويوم المحرم في العدد الممتاز الذي اصدرته في مستهل عام ١٣٥٣ هـ . فكان لها مقاله الاثير « وحي الهجرة في نفسي »[٣١] .

وقد فتن الرافعي نفسه بمقالاته هذه ، وعدها الادب الذي يريد ، .. وكان حسن وقعها عند القراء حافزا له على الاستمرار ، فعقد النية على ان يكتب السيرة العطرة كلها على هذا النسق الفلسفي من البيان العربي .

وما كاد يكتب في « الاشراق الالهي » ويصور روح الفلسفة الاسلامية حتى بادر القول : « هذه المقالات هي النمط الذي كنت اريد كتابة السيرة به »[٣٢] .

فلما كتب وهم ان يخرج كتابا آخر في الادب جرت على لسان صفيه العربان عبارة تنعته « بالكتاب النبوي » فاستحسنها وعدها الهاما وفاتحة بشرى[٣٣] وقال :

« لابد من الصبر عليه وايقافه لخدمة النبي صله الله عليه وسلم » فالله يوفقنا لاتمامه فان تم على هذه الطريقة كان مددا من روح النبي عليه الصلاة والسلام » واتبع ذلك بقوله داعيا : ولعل الله يتقبلها ويكتبها عنده حسنة في سيآتي الكثيرة »[٣٤] .

وما برح يكتب كذلك في ما يتكشف له من هذه المعاني ويدرك الحقيقة ان الشباب الاسلامي في حاجة الى كتابة من هذا النوع ، وفي كل وقت كان يتمنى ان يوفقه الله له »[٣٥] .

ولكنه بعد المعاناة وطول السهر وكد الذهن والتأمل الطويل ، واغراقه في ايذاء نفسه في التأثير على عافيته في الصياغة الفنية للادب النبوي التي كانما يستقطرها عطر معانيه ، وجد ان « الموضوع صعب جدا ، وليس في العربية مقال واحدمنه »[٣٦] .

ثم تبدى له ان « الكتاب النبوي » كلما كان صغيرا كان اقوى في اثره ، وكان اجمل وابلغ[٣٧] فبعد ان هم بكتابة اثنتى عشرة مقالة من هذا النوع[٣٨] عاد حين ادرك وطأة الاذى عليه ـ وهو يعتصر الحديث النبوي اعتصارا ويفقه حياة الرسول فقها ، ويزكي العبارات لتعطير الموضوع الذكي ، ويضمخ الادب بطيب البيان ، وينشر المعاني تفوح مع الارواح ، .. ويجلو ذلك كله بجمال العربية ويزينه بالجملة القرآنية ، ويقلده باللفظة النبوية ، ويبعثه فكرا يفقه ضمير الامة فيسمو به .. حتى قال : « سأتمه بمقالات اخرى ثم مقدمة صغيرة فيجيء بحجم « السحاب الاحمر »[٣٩] .

ولا ندري بعد ذلك ما الذي صرفه عن فكرة الكتاب هذا ؟! ولعل في اشارة الاستاذ فؤاد صرف عليه الى اخراج مقالاته الادبية في كتاب ، هي التي زحمته في تلك الايام فجعلته يضم النبويات هذه الى « وحي القلم » الثاني .

ولكني اجد من الصواب الاجدى والانفع ادبا واعتقادا ودراسة ان تعود هذه المقالات مع تاريخ البلاغة فتنتظم فكرة «الكتاب النبوي»

ولتكون من ثم جزء خاصا من « وحي القلم » ..

وعلى هذا الاساس افردنا لها التعريف .

حين انتهى الرافعي من دراسة تاريخ الادب القرآني واعجازه ، انتقل الى دراسة تاريخ الادب النبوي ، الذي هو الثمرة الزكية في الغرس الالهي للادب العربي بالقرآن المبين الذي عاد ضميرا للامة، يسمو بها كل حين .

لقد وفى خبر فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم حقها ، ورآها توفيقية من الله سبحانه وتعالى ، بغير تدريب ولا رواية[٤٠] .

ثم تحدث في نشأته اللغوية واقرار العرب بها عرفا وادبا .. حتى ابان عن احكام منطقه عليه الصلاة والسلام، وتعبيره في اللغة والصوت، واجتماع كلامه وقلته ، وبلاغة الطبع التي اثرت عنه ، وهو يؤتى جوامع الكلم ، وينصر بالرعب .

وبعد ان نفى الشعر عنه تاريخا وادبا[٤١] تكلم عن تأثيره في اللغة بما احدثه لها من التراكيب والمصطلحات والاوضاع المفردة ، التي تنامت بها علوم اللغة بعد ذلك[٤٢] .

ودرس رسائله وما فيها من بلاغة وقصد اد ب، حتى ادرك الفطرة اللغوية التي كان عليها صلى الله عليه وسلم ــ وهي تتميز بالالهام والتوفيق ابدا .

اما نسق البلاغة النبوية فان الرافعي قد اعتبرها في وجوه البيان ومناقلة الحديث بلا صنعة وكون ذلك النسق من سجاياه عليه السلام[٤٣] واشار كذلك الى اثر النفس الانسانية وطابع الوضع الالهي للنفس النبوية ، ونفس النبي العربي الامين[٤٤] .

وقد استوفى بذلك القصد في اقامة دعائم البلاغة النبوية على اسسها من البيان والحكمة ، والادب السامي ، تلك « البلاغة التي سجدت الافكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، .. تعرف

الحقيقة فيها كانها فكر صريح من افكار الخليقة ، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته انه مجاز في حقيقة »[٤٥] .

وفي مقالة « الاشراق الالهي وفلسفة الاسلام » يتحدث في موضوع النبوة في الفكر الانساني ، ويعقد المقارنة بينها وبين الانواء ، فالنبي « اشراق الهي على الانسانية يقومها في فلكها الاخلاقي الدائر ويجذبها الى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب ،.. ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الالهية معه في مثل بلاغة الفن البيانى لتكون اقوى اثرا ، وايسر فهما وابدع تمثيلا »[٤٦] .

يمضى في هذا الموضوع يفلسف فكرا جديدا للدين الاسلامى ، ويجعل النبي العظيم مثلا يحيا معه مسلما ، ويذكره كل حين كانه بين يديه ليكون ابن المعجزة .

وفي « حقيقة المسلم » يستهل حديثه بقوله المتقدم في اول التعريف ، .. ثم يقول ان الاسلام عنده « مبدأ انكار الذات و (اسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها كأنّ المسلم ينكر ذاته فيسلمها الانسانية تصرفها وتعتملها في كمالها ومعاليها »[٤٧] .

وعلى هذه الحقيقة المسلمة يذهب في تفسير العبادات والفروض والطاعات مذهبا فلسفيا آخر يفقه به صلة العبد بربه وبالناس في دعوة جديدة .

وفي « وحي الهجرة » يجد ان « تاريخ ما قبل الهجرة وضعَه الله كالمقدمة لتاريخ الاسلام في الارض »[٤٨] فقد بدأ الاسلام في رجل وامرأة وغلام ثم زاد حرا وعبدا ، .. اليست هذه الخمس هي كل اطوار البشرية في وجودها ؟![٤٩] .

وفي « فلسفة قصة » يصف قصة انفراد النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت زوجه خديجة الصديقة ، وعمه ابي طالب ، حيث وصل القوم من اذاه ان حثوا التراب على راسه الشريف فكانت احدى بناته

تغسل عنه التراب وتبكي .. فيقول لها النبي : « يابنية » لاتبكي .. فان الله مانع «اباك»[٥٠] فيمضي في تحليل هـذا القول الآبد ويعجب لرموز القدر في هذه القصة .

« الا ما أكمل هذه الانسانية التي تثبت ان قوة الخلق هي درجة ارفع من الخلق نفسه ، فهذا فن الصبر لا الصبر وحده ، وفن الحلم لا الحلم وحده »[٥١] !

ويتراءى « فوق الآدمية » يعرض لقصة « الاسراء والمعراج » التي يضطرب في تفسير واقعها وحقيقتها كثرة من فقهاء المسلمين انفسهم ،.. فيرى الرافعي في كثير مما وصل اليه العلم من الاختراع والاكتشاف في المادة والنفس بعض تفسير لتلك الواقعة ، فهو على الرأي الذي عليه الجمهور من ان الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معا ، فيكشف عن اسرار الاعجاز في الآية الكريمة « مازاغ البصر وما طغى »[٥٢] ويبصر في قوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس »[٥٣] فيثبت ان الطبيعة الآدمية كانت فيه كالنائمة عن حياتها الارضية بحقيقتها ، اذ من الممكن ان تتحول الاجسام الى حالتها الاثيرية في بعض الاحوال الخارقة .. الخ[٥٤] وفي اولها الاسراء النبوي .

وفي « الانسانية العليا » يجمع اوصاف النبي عليه السلام من روايات مختلفة ، ويجعلها كالحديث الواحد ،.. فيكشف به عما يدهشه من مجموع صفاته بان يتبين فيها « دليلا بينا على انه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخلقة القلب الانساني نظامه حياته ، وحياته نظامه ،.. فلا يزال يمد اعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر ، يجعل الحياة فيها على اضعافها كانها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة »[٥٥] .

« وهل ينبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم الا انه يعيش معيشة القلب ، اذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات الوجود فتجاوز ان يكون منبعا للحياة الى ان يكون حافظا للحياة في منبعها ؟ »

وفي « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الاعظم » يقول :

« ليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودي ، كلا .. كلا .. بل هناك حقيقة نفسية عقلية ثابتة متزنة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، .. الى الرفق والحلم والتواضع ، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة ان ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام باخلاقه وفضائله ، .. وهو الذي بعث لتنقيح غريزة التنازع من اجل البقاء وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها ، واماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها ،.. فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه ، واثبات انه الممكن لا الممتنع ، والحقيقي لا الخيال[٥٦] .

وفي « درس من النبوة » يفسر قوله تعالى « يا ايها النبي قل لازواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فانّ الله اعد للمحسنات اجرا عظيما »[٥٧] .

ليقول بعد ذلك : « ليست قصة التخيير هذه مسألة الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ، فهي صريحة ان النبى صلى الله عليه وسلم استاذ الانسانية كلها ، واجبه ان يكون فضيلة كل حياة ، وان يكون عزاءً في كل فقر وأن يكون تهذيبا في كل غنى ،ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الادبي للجميع »[٥٨] .

وهنا يصرخ في وجه بعض الدعوات بعد ان ادرك ان « ليس المصلح من فكر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحي العظيم الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه ، وتجعل له عمرا ذهنيا يكون مصرفا على حكمها فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها[٥٩] ليقول :

« تعالوا ايها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الاعظم ، ان مذهبكم مالم تحيه فضائل الاسلام وشرائعه ـ ان مذهبكم لكالشجرة تعلقون

عليها الاثمار تشدونها بالخيط ، كل يوم تحلون ، وكل يوم تربطون ، ولا ثمرة في الطبيعة »[٦٠] .

وفي« فلسفة الصوم » ورمضان الذي هو شهر للثورة ادرك ان « الاشتراكيين يضطربون وقد يعجزون عجز من يحاول تغيير الانسان بزيادة او نقص في اعصابه ، ولا يزال مذهبهم الدنيا مذهب كتب ورسائل ،.. ولو انهم تدبروا حكمة الصوم في الاسلام لرأوا هذا الشهر نظاما عمليا من اقوى وابدع الانظمة الاشتراكية الصحيحة : فهذا الصوم فقر اجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضا ليتساوى الجميع في بواطنهم سواء من ملك المليون من الدنانير ومن ملك القرش الواحد ، ومن لم يملك شيئا » .

«فقر اجباري يرادُ به اشعار النفس الانسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح : ان الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها ، أنها انما تكون على اتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحساس الالم الواحد لا حين يتنازعون باحساس الاهواء المتعددة » .

ولو حققت رايت الناس يختلفون ببطونهم واحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ، فمن البطن نكبة الانسانية ، واذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة ما ، مد البطن مده من قوى الهضم فلم يبق ولم يذر » .

ومن هنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ،.. وبهذا يضع الانسانية كلها في حالة نفسية تتلبس بها النفس في مشارق الارض ومغاربها ، فيشبع فيها بهذا فكرة معينة هي كل مافي مذهب الاشتراكية من الحق ، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته واطمئنان الفقير الى الغني بطبيعته ، ومن هذين — الاطمئنان والمساواة — يكون هدؤ الحياة . واذا انت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثا »[٦٢] .

ويقف الرافعي بعد ذلك بصراحته المعهودة ثابت الاخلاق معلنا « اقول ولا ابالي : اننا في نهضتنا هذه ابتلينا بقوم من المترجمين ، قد احترفوا النقل من لغات اوربا ، ولا عقل الا عقل ما ينقلون ، فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون او لايدرون صنعة تقليد محض ، ومتابعة مستعبدة ، واصبح عقلهم ـ بحكم العادة والطبيعة ـ اذا فكر انجذب الى ذلك الاصل لايخرج عليه ولايتحول عنه .

واذا صح ان اعمالنا هي التي تعلمنا ـ كما يقول بعض الحكماء ـ فهم بذلك حطر أي خطر على الشعب وقوميته العربية وذاتيته وخصائصه ،.. ويوشك اذا هو اطاعهم الى مايدعون ان .. ان يترجموه الى شعب آخر .. »(٦٢) .

وفي « السمو الروحي الاعظم والجمال الفني للبلاغة النبوية » يعود بنظرة جديدة تفسيرية اخرى في الحديث النبوي الشريف ـ غير التي تحدث عنها في البلاغة مع الاعجاز .. فيحلل حديث السفينة ، وحديث الغار ، وما يلحق بهما من احاديث اخرى وروايات ، ويكشف عما بدا له من اسرارها بتأمله فيها من ثم :

« ان كلام نبينا صلى الله عليه وسلم ، يجب ان يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حينئذ قيل مرة اخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالازهار الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ، وتعرفه انسانية قائمة تصحح بها اغلاط الزمن في اهله ، واغلاط الناس في زمنهم ، وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الام على اطفالها ، ـ والناس الان كالاطفال غابت امهم ، فهم في تنافر صبياني ، ... وما الام بطبيعتها الا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ، وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة »(٦٣) .

ثم هو يقرر حقيقة اخرى هي « ان النبي صلى الله عليه وسلم هو اعظم نبي واعظم مصلح فهو اعظم اديب ، لان فنه الادبي اعظم فن

يحقق للانسانية حياة اخلاقها ، وهو بكل ذلك اعظم انسان صلى الله عليه وسلم .

وهكذا كان الرافعي ـ رحمه الله ـ يسعى لكتابة صور من السيرة العطرة على هذا الاسلوب من الفلسفة الاعتقادية الادبية ، والتحليل الروحي للنصوص التغلغل النفسي في المواقف والاهداف ، .. ولكن يظهر ان ذلك كان عسير الهضم على بعض القراء ، كما ان فيه اعتصارا لروحه يؤذيه في معظم احيانه فانصرف عنه الى موضوعات اخرى ولم يكن يخليها من خلق نبوي ابدا .

ويمثل هذا الكتاب خلاصة فريدة لادب الرافعي وفنه ، وما كتبه في فنون البلاغة والانشاء جميعا وما توفر عليه حقيقة واعتقاد ، وما جلى فيه صفة ومادة .

وقد لا اغرب في القول ان زعمت ان هذا المذهب الرافعي قد اثر في ادباء جيله ، فحاول بعضهم النسج على منواله وان لم يلحق بفنه وبيانه كما فعل العقاد في « عبقرية محمد » ، والعبقريات الاخريات[٦٤] وربما كان ادب الرافعي هذا وراء كتاب جاد المولى في « المثل الكامل » .. ولم يكن بعيدا عن عبد الرحمن عزام «والرسالة الخالدة» ومحمد لطفي جمعة « وثورة الاسلام » ، ومحمود شيث خطاب « والرسول القائد » ، ومحمد رضا وفلان وفلان وغيرهم ـ وان لم يشيروا الى هذا الاثر نكرانا او غفلة وسهوا .

---

(١) الرافعي ـ حقيقة المسلم ـ الرسالة ٩٣ .
(٢) محمد عبد الله عنان ـ الرسالة ١٤٣ .
(٣) توفيق الحكيم ـ الرسالة ٩٣ .
(٤) انور الجندي ـ المعارك الادبية .
(٥) محب الدين الخطيب ـ الازهر ١٤ ـ ٣ .
(٦) رد عليه الشيخ مهمد عبده (الرد على الدهريين) .
(٧) سلامة موسى ـ الهلال ـ يناير ١٩٤٢ .

(٨) كاقتفاء لطفي السيد الذي اسمه احمد للورد ، وفرن البريطاني ، واتباع طه حسين لمرجليوث المبشر الفرنسي ،ومشي زكي مبارك وراء ماسنيون والتفاف على عبدالرزاق باذيال هانوتو ، ولـواذ الاذناب الاخرين باذيال دوزي وغيره .

(٩) عباس عمار ـ الاهرام ٣٠ ـ ٩ ـ ١٩٢٥ .

(١٠) انتظر دراسات لنا في هؤلاء الاعلام الذين تصدوا لهذه الحرب الضروس بمفردهم .

(١١) انظر احمد عيش ـ المقتطف ٧٣ ص ٥٧١ .

(١٢) كتابنا عصر الرافعي ص ١٠٣ ـ عن المنار محرم ١٣١٨ هـ ـ ايار ـ مايو ١٩٠٠م .

(١٣) كتابنا : ص ١٠٤ .

(١٤) المنار ـ رمضان ١٣١٧ هـ ـ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٠٠ م ـ كتابنا ٢٨٥ .

(١٥) ديوان الرافعي جـ ١ ص ١١٩ .

(١٦) رسائل الرافعي ص ٦٦ وانظر جريدة الحال ١٥ ربيـع الاول ١٣٧٧ هـ ـ ١٨ ـ ١٢ ـ ١٩١٨ .

(١٧) رسائل الرافعي ص ١٠٢ وغيرها .

(١٨) رسائل الرافعي ص ٣٠٥ وانظر كتابنا ـ عصر الرافعي ص ١٥١ ففيه خبر ترجمة الهامش .

(١٩) رسائل الرافعي ص ٢٥٥ ، وانور الجندي ـ معركة التفريب ـ وقد عدل هيكل عن رايه هذاك فيما بعد ! .

(٢٠) رسائل الرافعي ص ٢٩٠ ـ وقد حدثني الطائي عن خبر الحاحه وطلبه حيث جعل من اولى احاديث الرافعي له مقدمة لكتاب له في الحديث النبوي يصدر حديثا .

(٢١) رسائل الرافعي ص ٢٢٢ .

(٢٢) اراد يعوزهم .

(٢٣) رسائل الرافعي ص ٢٢٢ .

(٢٤) هي قوله في النار المقدسة عند اليونان تلتهب في صدور العباقرة فتتحول بهم عملا اثيرا .

(٢٥) رسائل الرافعي ص ١٩١ وكتابنا ٤٦٣ =

(٢٦) هي : حديث القمر ـ كتاب المساكين . رسائل الاحزان . السحاب الاحمر . اوراق الورد ، التي مانسج على منوالها اديب .

(٢٧) الرسائل ـ ٣٠٢ .

(٢٨) رسائل الرافعي ص ٢٩٠ ـ حياة الرافعي ص ٢١٥ .

(٢٩) رسائل الرافعي ـ ٢٩١ ـ حياة الرافعي ٢١٥ .

(٣٠) رسائل الرافعي ص ٢٩١ ـ حياة الرافعي ٢١٦ .

(٣١) حياة الرافعي .

(٣٢) رسائل الرافعي ٣٠٧ .

(٣٣) رسائل الرافعي ـ ٣١٠ .

(٣٤) رسائل الرافعي ـ ٣٢٢ .

(٣٥) رسائل الرافعي ـ ٣٢٢ .

(٣٦) رسائل الرافعي ـ ٣١٢ .

(٣٧) رسائل الرافعي ـ ٣١٣ .

(٣٨) رسائل الرافعي ـ ٣٠٧ .

(٣٩) رسائل الرافعي ـ ٣١٣ .

(٤٠) تاريخ آداب العرب ـ الجزء الثاني ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

(٤١) المصدر السابق .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٣) المصدر السابق .

(٤٤) المصدر السابق .

(٤٥) المصدر السابق .

(٤٦) الرسالة ـ ٥١ ـ ١٥ ربيع الاول ١٣٥٣ هـ .

(٤٧) الرسالة ـ ٩٣ ـ ٢ محرم الحرام ١٣٥٤ هـ .

(٤٨) الرسالة ـ ٤٢ ـ ١ محرم الحرام ١٣٥٣ هـ .

(٤٩) الرسالة ـ ٤٢ ـ ١ محرم الحرام ١٣٥٣ هـ .

(٥٠) الرسالة ـ ٤٣ ـ ٧ محرم الحرام ١٣٥٣ هـ .

(٥٠) الرسالة ـ ١٤٣ ـ ٧ محر الحرام ١٣٠٥ هـ .

(٥١) الرسالة ـ ١٤٣ ـ ٧ محرم الحرام ١٣٠٥ هـ .

(٥٢) الرسالة ١٢٢ ـ ٧ شعبان ١٣٥٤ هـ .

(٥٣) الآية .

(٥٤) الرسالة ـ ١٢٢ .

(٥٥) الرسالة ـ ٦٠ ـ ١٧ جمادي الاول ١٣٥٣ هـ .

(٥٦) الرسالة ـ ٥٨ .
(٥٧) الآيـة .
(٥٨) ، (٥٩) ؛ (٦٠) الرسالة ٢٨ محرم الحرام ١٣٥٥ هـ .
(٦١) الرسالة ٧٥ ـ ٣ رمضـان ١٣٥٣ هـ .
(٦٢) الرسالة ١١٥ ـ ١٨ جمادي الاول ١٣٥٤ هـ .
(٦٣) الذكرى ـ ١٣٦ ـ بغداد ـ ربيع الاول ١٣٥٢ هـ .
(٦٤) كتابنا ـ عصر الرافعي ـ ١٥١ وانظر احسان عباس ـ فـن